

البيوتات العلمية بمدينة قسنطينة
خلال العهد الحفصي وإسهامها الثقافي.

~~~~~ أة. نعيمة بوكرديمي\*††

**مقدمة:** عرفت مدينة قسنطينة نهضة علمية وثقافية في عهد بني حفص لم تشهد لها من قبل مثيل، ومرد ذلك يعود إلى انتشار التعليم بواسطة الكتاتيب والمدارس والجوامع والزوايا، بالإضافة إلى شيوخ المدينة ومعلميها والوافدين عليها من تونس وبجاية والأندلس، الأمر الذي ساعد على انتشار المكتبات التي أصبحت تزخر بالجلدات وأمهات الكتب في مختلف التخصصات<sup>(1)</sup>، كما يعود الفضل في تلك النهضة العلمية والثقافية إلى البيوتات والأسر العلمية التي حملت مشعل العلم والثقافة، وتمكنت من البروز في عدة مجالات، مما جعلها تصنف حسب مجالات بروزها إلى بيوتات سياسية أو دينية أو علمية غير أن أكثر أصنافها وجودا وانتشارا بمدينة قسنطينة هي البيوتات الدينية والعلمية التي أنجبت العديد من العلماء والفقهاء والأدباء الذين تصدروا للتدريس والتأليف والإفتاء والقضاء، وهي التي توصف بأنها بيوتات علمية، أما البيوتات التي اشتهرت بخدمة التصوف فتوصف بأنها بيوتات دينية أو بيوتات مرابطين<sup>(2)</sup>، وبما أن كليهما خدم الدين فإن البيوتات العلمية اصطفت أيضا بالصبغة الدينية، أما البيوتات الدينية التي لم يخدم أبنائها العلم بالشكل الذي ذكرناه فلا توصف بأنها علمية<sup>(3)</sup>.

**مفهوم البيوتات العلمية:**

**1- التعريف اللغوي:** جاء في المعجم الوسيط "بيت" مفرد، وجمعه "بيوت" و"أبيات"، وجمع جمعه بيوت وأبيات<sup>(4)</sup>، والبيت في العموم المقصود به السكن الذي يأوي إليه الإنسان، وقد يعني البيت كذلك عيال الرجل<sup>(5)</sup> ويقصد به أيضا المرأة، فإذا قيل لرجل ما هل لديك بيت؟ فالمقصود بهذا السؤال المرأة<sup>(6)</sup>.

**2- التعريف الاصطلاحي:** من أكثر التعاريف التي تقترب من التعريف الاصطلاحي ما ذكره الزمخشري في هذا الصدد حيث قال: "إننا إذا قلنا أن هذا الشخص أو ذاك من أهل البيوتات أقصد بذلك أنه من بيت كريم<sup>(7)</sup>، وكذلك ما ذهب إليه المؤرخ العلامة عبد الرحمن بن خلدون عندما قال: "إن معنى البيت أن يعد الرجل في أبياته أشراف مذكورين تكون له بولادتهم إياه، والانتساب إليهم تجلته من أهل جلدته كما وقر في نفوسهم من تجلته سلفه وشرفهم بخلالهم"<sup>(8)</sup>، ويوافق هذا التعريف قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم"<sup>(9)</sup>، وفي ذلك إشارة إلى بلوغه غاية من المجد<sup>(10)</sup>.

\* أستاذة مساعدة في التاريخ الإسلامي - شعبة التاريخ - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة حسيبية بن بوعلوي - الشلف.

وبناء على ما سبق ذكره يتبين أن المقصود بالبيوتات هي تلك الأسر التي حازت المجد والتعظيم، ولم يتسنى لها ذلك إلا بإحراز العلم والولاية والثروة والوجود والشجاعة ونحو ذلك من الأوصاف.

- أبرز البيوتات العلمية بمدينة قسنطينة خلال العهد الحفصي: عرفت مدينة قسنطينة في العهد الحفصي كغيرها من مدن الغرب الاسلامي ظاهرة البيوتات التي تعد المحرك الأساسي لعجلة الحياة الفكرية والثقافية، ومن أشهر البيوتات العلمية العريقة بمدينة قسنطينة خلال هذه الفترة المعنية بالدراسة:

**1- بيت الفكون بقسنطينة:** يعد بيت الفكون من البيوتات العريقة والشهيرة بقسنطينة في العهد الحفصي، وعن نسبهم فقد ترجم الغريبي في كتابه عنوان الدراية لأحد أسلاف هذا البيت الشيخ الشاعر أبو علي حسن بن علي المعروف بابن الفكون الذي عاش خلال القرنين السادس والسابع الهجريين قائلاً إن: "أصله من قسنطينة من ذوي بيوتاتها، ومن كريم أروماتها"<sup>(11)</sup>، وهو ما يجعلنا ندرك أن نشأة هذا البيت واشتهاره بالنباهة سابق عن الفترة التي عاش فيها جددهم هذا، وقد حظي بيت الفكون القسنطيني العريق هذا بالمتزلة والمكانة الرفيعة والمجد في العهد الحفصي بحكم ما تميز به علماؤه من سعة العلم والمعارف والنسب الشريف<sup>(12)</sup>.

- أشهر علماء بيت الفكون خلال العهد الحفصي: أنجب بيت الفكون القسنطيني عددا من العلماء خلال العهد الحفصي ساهموا في نهضة قسنطينة الثقافية والعلمية ومن هؤلاء نذكر:

- الشيخ أبو علي حسن بن علي بن عمر الفكون (كان حيا سنة 602/1205م). شاعر المغرب الأوسط في وقته، ذكره برنشفيك قائلاً: "في عهد أبي زكريا برز الشاعر أبو الحسن بن الفكون الذي ينتمي إلى عائلة ماجدة من قسنطينة"<sup>(13)</sup>، ووصفه الغريبي من جهته قائلاً بأنه: "من الأديباء الذين تستظرف أخبارهم وتروق أشعارهم، غزير النظم والنشر"<sup>(14)</sup>، أما ديوانه فهو موجود بين أيدي الناس ومحبوب بينهم، وله رحلة مشهورة<sup>(15)</sup>.

ومن أجداده القدماء اثنين وهما عبد الرحمن الفكون المدفون بزواوية الفكون القديمة التي تنازلوا عنها لأصهارهم عائلة ابن نعمون وهو من الصالحين، أما الثاني منهما فهو محمد شقرون بن حليلة وهو جد الشيخ عبد الكريم الفكون دفين رحبة قسنطينة المسماة بأكدال وهو كذلك من الصلحاء<sup>(16)</sup>.

**2- بيت ابن باديس:** يعد واحدا من البيوت الحضرية المشهورة بقسنطينة بالعلم والثراء إلى جانب الجاه الاجتماعي والروحي خلال العهد الحفصي.

- من أشهر علماء البيت الباديسي خلال العهد الحفصي:

- أبو علي حسن بن بلقاسم بن باديس القسنطيني (القرن السابع الهجري/13م) وصفه العبدري قائلاً في شأنه: "وليس في البلد من يذكر بالعلم سواه البتة"<sup>(17)</sup>.

- أبو علي حسن بن خلف الله بن حسن بن أبي القاسم (ت 1382/هـ): هو أبو علي حسن بن خلف الله بن حسن بن أبي القاسم بن ميمون بن باديس، ولي الخطابة والقضاء بقسنطينة<sup>(18)</sup>.

- أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس القسنطيني (ت 1385/هـ) وصفه ابن الخطيب القسنطيني بقوله: "شيخنا الفقيه القاضي<sup>(19)</sup> الشهير المحدث أبو علي<sup>(20)</sup>، ولي قضاء الجماعة بتونس حاضرة الحفصيين لبضعة سنين<sup>(21)</sup>، ويدل ارتقائه لهذا المنصب على تلك المكانة العالية الشهيرة التي كان يحظى بها بين أوساط معاصريه من العلماء.

وعلية يمكن القول بأن تولي علماء البيت الباديسي القضاء في قسنطينة يؤكد أن الأسرة الباديسية كانت تستأثر بخطة القضاء في قسنطينة خلال القرن الثامن الهجري/14م، وقد استمروا في تولي هذه الوظائف خلال العهد العثماني.

**3- بيت ابن الغربي، ابن قنفذ فيما بعد:** هو من البيوتات العريقة بقسنطينة، ورغم اختلاف الروايات حول صحة نسبهم، إلا أن المؤرخ أبو القاسم سعد الله ينسبهم إلى أحمد الخطيب المعروف بابن قنفذ المتوفي سنة 1407/هـ 810م صاحب كتاب الوفيات، لأنه في نظره ليس في قسنطينة عالم مشهور وذو صيت ونفوذ بهذا الاسم غير من ذكره، أما عن شهرته بابن قنفذ فهي قديمة ولا يعرف لها سبب<sup>(22)</sup>.

- أشهر علماء بيت ابن القنفذ في العهد الحفصي:

- حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ القسنطيني (ت 1265/هـ 664م) كان حسن بن علي فقيهاً، وهو من أعيان مدينة قسنطينة، ذكره جده ابن قنفذ في كتابه الوفيات وأثنى عليه<sup>(23)</sup>.

- حسن بن حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ (ت 1333/هـ 735م)، هو جد صاحب كتاب الوفيات والد والده، ولي الخطابة بجامع القصبة بقسنطينة لمدة طويلة<sup>(24)</sup>، كما ولي القضاء بالمدينة نفسها<sup>(25)</sup>.

- حسن بن علي بن حسن (ت 1349/هـ 750م) هو حسن بن علي بن حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ، وهو والد صاحب كتاب الوفيات، فقيه محدث تولى هو الآخر عدة وظائف منها الخطابة<sup>(26)</sup>، واشتغل بالتدريس حسب ما ذكره ابنه في كتابه أنس الفقير، حيث قال بشأنه: "وما زال والدي... مشغولاً بطلب العلم وتدريسه ببلده مقتدياً بسمته بطريقة أبيه وجده حتى لقي الله تعالى"<sup>(27)</sup>.

- أحمد بن حسن بن علي (ت 810هـ/1407م) هو أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن حسن بن علي بن ميمون الشهير بابن الخطيب وابن قنفذ، وسبب شهرته بابن الخطيب راجع إلى تولي كل من جده ووالده الخطابة لمدة طويلة<sup>(28)</sup>، وتوليه هو الآخر خطة الخطابة في جامع القصبة بقسنطينة كأسلافه، كما تولى القضاء والفتيا<sup>(29)</sup>، وعكف على نشر العلم والتدريس والتأليف إلى أن توفي، من أبرز تلاميذه العالم الشهير ابن مرزوق الحفيد، بحكم ذلك عُدَّ ابن قنفذ القسنطيني من العلماء المتميزين، وكانت صلواته وثيقة بفرع الدولة الحفصية في قسنطينة التي تمتع في ظلها بحظوة كبيرة.

عرف ابن قنفذ بتأليفه المختلفة في شتى المواضيع نذكر منها كتاب الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية<sup>(30)</sup>، وكتاب الوفيات<sup>(31)</sup>، وأنس الفقير وعز الحقيير.

ومما سبق يتضح لنا استئثار أبناء بيت ابن قنفذ خلال العهد الحفصي بالإمامة والخطابة.

**4- بيت الكماد:** هو بيت عربي خزرجي أنصاري<sup>(32)</sup>، ويعد من البيوتات العريقة بقسنطينة وهو من بيوتات الشرف<sup>(33)</sup>، ولذلك كان أحد أبنائه وهو محمد بن أحمد الكماد يضيف إلى اسمه نسبة الحسيني<sup>(34)</sup>.

اشتهر بيت الكماد هذا بالعلم والصلاح، وقد تقلد أبنائه في العهد الحفصي عدة وظائف مهمة في الدولة الحفصية منها نظارة الأشغال والكتابة بالحاضرة تونس وبمدينة قسنطينة، وهي من الوظائف الرفيعة والسامية في الدولة<sup>(35)</sup>.

**أشهر علماء بيت الكماد في العهد الحفصي:**

- إبراهيم بن عبد الكريم بن الكماد (8هـ/14م): يعد ابن الكماد هذا ووالده من أعيان قسنطينة وكتابها، وقد وصف والده الفقيه بالحظي دلالة على مكانته بين رجال الدولة<sup>(36)</sup>.

- أحمد بن الكماد (8هـ/14م): تشير المصادر إلى أن أحمد بن الكماد هذا كان كاتباً للحفصيين بقسنطينة، كما أنه لعب دوراً في الأحداث السياسية التي وقعت بها، ومنها سعيه لتدبير مؤامرة ضد أمير قسنطينة أبا يحيى أبا بكر بمساعدة أمير بونة أبو عبد الله محمد بن أبي يحيى زكريا، لكنها باءت بالفشل بسبب تدخل السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز في الأمر وتغلبه عليه سنة 797/1394م، الأمر الذي دفع بأمير بونة أبا عبد الله إلى الفرار إلى مدينة فاس في الوقت الذي لم نخرننا المصادر التي أوردت هذا الخبر شيئاً عن مصير أحمد بن الكماد الكاتب المدير لهذه المؤامرة<sup>(37)</sup>.

- أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الكماد (9هـ/15م): ذكره أبو عبد الله محمد الزركشي مرتين، الأولى في أحداث عام 857/1453م، حيث قال: "قدم إلى الحاضرة تونس الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الكماد ناظر في الأشغال بالحاضرة"<sup>(38)</sup>، والثانية في أحداث عام 868/1463م لما عزل الناظر في بيت الحساب، وقدم الفقيه محمد بن الكماد بها وبادر الأشغال<sup>(39)</sup>، ويعد هذا المنصب من المناصب الكبرى في الدولة بحيث كان الناظر في الأشغال هو رئيس الإدارة المالية<sup>(40)</sup>.

ومن خلال ما سبق ذكره يتبين لنا استحواذ بيت الكماد بوظيفة الكتابة إضافة إلى دورهم في النشاط السياسي.

**5- بيت ابن نعمون:** وزيادة على هذه البيوتات العريقة بمدينة قسنطينة، وجدت هناك بيوتات أخرى كبيت ابن نعمون، وهم من نسل سيدي نعمون<sup>(41)</sup>، ومن أشهر علمائهم نذكر أبو محمد بركات بن نعمون أحد فقهاء قسنطينة، وهو جد أبي عبد الله محمد بن نعمون للأب، إلا أن الفكون لم يتحقق من اسمه، دفن زاوية الجوفية المشهورة بهم<sup>(42)</sup>، ويورد عبد الكريم الفكون رواية تؤكد أن الأسرة التي نحن

بصدد التعريف بها أسرة علمية منذ العهد الحفصي ومما جاء فيها: "أن الفقيه أبو محمد بركات بن نعمون كان أميا في صغره إذ خرج عن طريقة أسلافه، ولذلك وبجته الشيخ أبو زكريا الفكون أمرا إياه بالرجوع إلى طريقة أسلافه، وحظّه على القراءة، فيقال إنه تصاغر واستحى منه، ورجع من حينه إلى الطريقة المثلى، ففتح الله عليه في الفقه والصلاح، فكان ممن يشار إليه في الصلاح ورضى الحال"<sup>(43)</sup>، حاله في ذلك حال أسلافه الأقدمين الذين ينسبون بالصلاح<sup>(44)</sup>.

تولى الشيخ الفقيه أبو البركات بن نعمون الإمامة بالجامع الأعظم بعد انتقال الشيخ يحيى الفكون إلى تونس، ولم يزل إماما به إلى أن عزل عن الإمامة<sup>(45)</sup>، وأبو عبد الله بن نعمون الذي ينحدر من أسرتين علميتين عريقتين أسرة الفكون وأسرة ابن نعمون، فهو ابن أخت عبد الكريم الفكون الجد وجده للأب الإمام أبو البركات ابن نعمون، قرأ أبو عبد الله بن نعمون على مشايخ قسنطينة، كما تولى عدة وظائف في قسنطينة كالقضاء وخطة الفرائض ومفاصلات التركات والإشراف على صاحب الموارث بعد موت صهره أبي محمد عبد اللطيف المسيح، ثم ترقى لمنصب الفتيا<sup>(46)</sup>.

**6- بيت المسيح:** من بيوتات قسنطينة العربية، وينتمي أفرادها إلى بني مرداس حسب ما أكده عبد القادر الراشدي في كتابه عقد اللائي المستضيئة لنفي ظلام التلبس الذي وضع المسيح من بني مرداس بن عوف السلمي<sup>(47)</sup>، ومن أشهر علماء هذا البيت الإخوة الثلاثة عبد اللطيف المسيح (ت 1572/981م) الفقيه المدرس، وأبو محمد بركات المسيح (ت 1574/982م)، وأبو عبد الله محمد المسيح، وهم من العلماء الذين برزوا في الميدان الفقهي<sup>(48)</sup>.

- تنافس بيوتات قسنطينة الكبرى على مراكز النفوذ والولاء في العهد الحفصي: عرفت بيوتات قسنطينة الكبرى فيما بينها تنافسا حول مراكز النفوذ والولاء والامتيازات في العهد الحفصي، وخير دليل يحضرننا في هذا المقام تلك الحادثة التي أوردها المؤرخ ابن قنفذ القسنطيني في كتابه الشهير بـ"الفارسية"، والتي تقول إنه لما مرض الأمير الحفصي أبا زكريا<sup>(49)</sup> في آخر القرن السابع الهجري/13م مرة بقسنطينة، وبعد شفائه قدم إليه وفد من أهل بجاية للتهنئة يرأسهم الفقيه أبو العباس الغبريني، ووفد من أهل قسنطينة برئاسة الفقيه ابن الدم، فدخل وفد بجاية وتلاه وفد قسنطينة، إلا أن الوفد البجائي دخل بوقار مع قاضيه ورئيسه في حين دخل القسنطينيون وهم يتراحمون مع قاضيهم كأنه واحد منهم، وكل واحد منهم كان يريد أن يكون الموالي للسلطان في جلوسه، فعلق قاضي بجاية على ذلك لقاضي قسنطينة: "أرأيت أدب أهل بلدنا معي، وأنت لا وقار لك مع أهل بلدك"<sup>(50)</sup>؛ فردّ عليه هذا الأخير مبينا سبب تلك المزاحمة بقوله: "إن فقهاكم محدثون ببلدكم، وهؤلاء كل بيت يرى أنه أرفع من الآخر بأصالتهم في بلدهم وقدم نعمتهم"<sup>(51)</sup>.

ومن خلال جواب ابن الدم يتأكد لدينا ترفع البيوتات عن بعضها بمكانتها في مدينة قسنطينة وبأصالتها وجاهاها.

وقد لعبت أغلب هذه البيوتات الكبرى وفي مقدمتها العائلات الدينية دورا فعالا داخل المجتمع القسنطيني خلال العهد الحفصي، فهي التي كانت تقوم بتنظيم العلاقات العامة، وتسهر على توفير الأمن داخل المدينة وتنشيط الحياة الاقتصادية<sup>(52)</sup>.

وللإشارة، فقد كانت معظم بيوتات قسنطينة الكبرى هذه تعيش على أساس التجارة والزراعة والعلم، وذلك أن قيمة العائلة كانت في تراثها العلمي الذي يقوم على تحفيظ القرآن الكريم لأبنائها، وتولي المناصب الرفيعة والسامية التي تتطلب رصيذا علميا غزيرا كالقضاء والفتوى والتدريس، واعتناق التصوف الديني الذي ساهم بدوره في بناء الزوايا<sup>(53)</sup>.

وهكذا وبفضل هذا التراث العلمي كانت كل عائلة تعتز وتفخر بمجدها وشهرتها ونفوذها على باقي العائلات الأخرى.

- مكانة البيوتات العلمية ودورها الاجتماعي: تمتعت البيوتات العلمية والدينية بمكانة رفيعة في المجتمع، وهذا ما أهلها للقيام بأدوار بارزة في مختلف الميادين، وهنا نلاحظ أن بيوتات المرابطين وأصحاب الزوايا الصوفية كانت تتمتع بنفوذ كبير في الأوساط الشعبية أكثر من البيوتات العلمية التي لم تتمتع بنفوذ روحي<sup>(54)</sup>.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض أعيان البيوتات العلمية تمكنت من تحقيق مكانة روحية كبيرة في المجتمع بما اكتسبته من ثروة وجاه، وبخدمتها للدين من خلال تولى أبنائها للمناصب الدينية العليا كالفتوى أو الخطابة والإمامة في الجوامع الكبرى، فبيت قدورة مثلا لم يكن من بيوتات المرابطين، ولكن تمتعه بالثروة والجاه وخدمته للدين لمدة طويلة أكسبه حضورا دينيا كبيرا حتى اعتقد الأهالي أن مدينتهم قد تعرض للمصائب إذ لم يتولى الفتوى أحد علماء هذا البيت؛ فالتصوف والشرف ليس السبيل الوحيد الذي يحقق النفوذ الروحي للبيوتات<sup>(55)</sup>.

وهناك مثال آخر يتعلق ببيت الفكون الذي ينتسب إلى النسب العربي لكنه لا ينتسب إلى الأشراف الذين لم يسخروا كل إمكانياتهم المادية والمعنوية، إذ اشتهروا بالعلم أكثر من التصوف، وبما أنهم اكتسبوا الثروة والجاه، وأضافوا لهما النفوذ الروحي لخدمة المجتمع والعلم لأن الانتصاب لتدريس العلم الشرعي في حد ذاته خدمة للدين إذ لا فرق بين العلم والدين في تلك الفترة<sup>(56)</sup>.

وعليه فإن البيوتات العلمية لم تكنسب مكانة روحية إلا إذا اكتسبت جاها عريضا، واكتسبت الثروة واشتهرت بخدمة الدين، عندها فقط ينظر المجتمع لأبنائها كمرابطين، أما بيوتات المرابطين فبإمكانها إن

تحقق النفوذ الروحي وتشهر حتى وإن لم تنجب علماء كبار خصوصا إذا كانت شريفة حتى إذا لم يشتهر رجالها بالعلم.

وكل هذه البيوتات العلمية والدينية خدمت المجتمع، وحتى ولو لم يكن ذلك بالطريقة نفسها، فهناك فرق بين البيوتات العلمية التي ركزت على نشر العلم الشرعي، وأضافت إليه أحيانا علم التصوف وبين البيوتات الدينية التي اكتفت بتلقي الأذكار دون العلم الشرعي<sup>(57)</sup>.

وقد كانت أوامر البيوتات التي أشرنا إليها مطاعة، فكان الناس يلجؤون إليهم لحل النزاعات بين الأفراد، وإمهاء الفتن بين القبائل، والحصول على الرأي السديد<sup>(58)</sup>، وكان علماءها يقومون بواجبهم التعليمي المتمثل في حلقات الدروس التي تتطرق لمختلف العلوم سواء لطلبة العلم وحتى لعامة الناس في المساجد، كما كانوا يحفزون على الجهاد في سبيل الله، ويشاركون في تنشيط الرباطات<sup>(59)</sup>، وكانت حل الزوايا التي تمتلكها البيوتات العلمية تؤدي دورا اجتماعيا إلى جانب دورها الثقافي، ومن ذلك استقبالها للضيوف من الفقراء والغرباء، والمصالحة بين المتخاصمين وغيرها<sup>(60)</sup>.

- **مصاهرات البيوتات العلمية:** حرس البيوتات العلمية بمختلف أصفافها على أن تكون علاقاتها منصبية على المحافظة على تفوقها، وعلى عراققتها بالمصاهرة في البيوتات العريقة مثلها، وخير دليل على ذلك وصية غيلان بن سلمة (القرن الأول الهجري/7م) لابنه بمصاهرة أهل البيوتات قائلا له: "يا بني قد أحسنت خدمة أموالكم وأجدت أمهاتكم، فلن تزالوا بخير ما غدوتم من كرم وغدا منكم؛ فعليكم بيوتات العرب فإنها معارج الكرم"<sup>(61)</sup>.

وفي سبيل أن تبقى دائرة الوجاهة والسؤدد في نطاق ضيق تحتكره بيوتات محدودة حتى لا تنافسها العامة، ومن أجل أن لا تفقد الوجاهة والسلطة قيمتها، عملت أغلب البيوتات على تجنب مصاهرة الأسر الأقل شأنًا منها<sup>(62)</sup>.

- **الوضع المادي للبيوتات العلمية:** تصب مجمل نظريات علماء الاجتماع على أن الحالة المادية للعلماء ورجال القلم تكون متدهورة بالمقارنة مع رفاهية وثراء أهل السيف والسلطة، وأبرز هؤلاء العلماء عبد الرحمن بن خلدون الذي ينظر للعلماء بنظرة المؤرخ الاجتماعي حين يقول: إن "القائمين بأمر الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب"<sup>(63)</sup>.

إن ففة العلماء لم تكن على العموم حائزة على ثروة مادية كبيرة، ومستوى الثروة العام لدى أصحاب القلم يصنفهم في الفئة الدنيا من الشرائح المتوسطة<sup>(64)</sup>.

ولكن هناك فوارق شاسعة بين ثروة بيوت العلم أمثال بيت قدورة في الجزائر، وبيت الفكون بقسنطينة الذين ينتمون أبا عن جد إلى النخبة الحاكمة، ذلك أن البيوتات التي ينحدر منها هؤلاء حائزة على الجاه، والجاه مفيد للمال<sup>(65)</sup>.

- حصر بعض الوظائف في بيوتات معينة: لقد عملت السلطات الحاكمة على توريث الوظائف الدينية في الأسرة الواحدة، وحصر الوظائف الرفيعة في أسرة واحدة يعتبر في حد ذاته امتيازاً مادياً ومعنوياً، نظراً لما كانت تجلبه هذه الوظائف لصاحبها من مكانة مرموقة لدى الخاصة والعامة<sup>(66)</sup>.

وكان الموظفون القائمون على الخدمات القضائية يكسبون معاشهم من الأوقاف، ومن الأرزاق الشهرية التي يصرفها لهم بيت المال، بالإضافة إلى المكافآت الموسمية التي كانوا يستفيدون منها<sup>(67)</sup>.

وقد كان هناك تباين بين متولي الوظائف الدينية العليا كالقضاء والفتيا، وكبار العلماء المدرسين، وبين أصحاب الوظائف الدينية والعلمية الأخرى، وكانت في المؤسسات الدينية والعلمية هذه أقلية مسورة الحال تحتل أعلى المناصب وتعرف بالنخبة، وأغلبية فقيرة أو متوسطة، وكان خدام المساجد والمدارس والزوايا عديدون وبينهم من يعيش في حالة فقر<sup>(68)</sup>.

- الإسهام الثقافي لبيوتات مدينة قسنطينة خلال العهد الحفصي: من خلال تتبعنا لهذه البيوتات العلمية العريقة نقف على الإسهام الثقافي لها في تطوير الحركة العلمية داخل مدينة قسنطينة خلال العهد الحفصي، ونلمس ذلك في كونها وفرت للمجتمع القسنطيني عدداً كبيراً من رجال العلم، من فقهاء وأدباء اعتمد عليهم الحفصيون في الجهاز الإداري ككتاب ووزراء وقضاة وخطباء، كما جعلت هذه البيوتات من مدينة قسنطينة مدينة متميزة بنخبها العلمية كبيت الفكون وبيت ابن باديس وبيت الكماد، كما استطاعت هذه البيوتات احتكار وظائف دينية عليا وإدارية سامية كالقضاء والإفتاء والكتابة لمدة طويلة كبيت ابن باديس الذي احتكر منصب الإمامة والخطابة وبيت ابن الكماد الذي احتكر وظيفة الكتابة والأشغال السياسية<sup>(69)</sup>.

وللإشارة فإن هذه البيوتات لم تكن لتبلغ ما بلغته، وتحتكر هذه المناصب العليا لولا رصيدها العلمي العالي من جهة، وعلاقتها الجيدة مع رجال السلطة الحاكمة، خصوصاً وأن التعيين في هذه الوظائف العليا كان يتم من طرف أعلى سلطة في البلاد.

خاتمة: وهكذا نرى في الأخير أن البيوتات العلمية لمدينة قسنطينة خلال العهد الحفصي كان لها دور فعال في دفع الحركة الثقافية إلى الإمام، كما استطاعت أن تجعل من مدينة قسنطينة منارة علمية ليس في العهد الحفصي فقط، وإنما استمرت حتى في العهد العثماني، وكل ذلك بفضل اعتكاف أبنائها على التدريس والتأليف، ومن ثم إبراز أدوارها في هذا المجال من خلال مساهمتها في تخريج العديد من الأجيال المثقفة التي جعلتها إلى يومنا هذا تعرف بمدينة العلم والعلماء.



الهوامش:

- 1-كمال غربي : المساجد والزوايا في مدينة قسنطينة الاثرية، منشورات وزارة الشؤون الدينية والاقواف، تلمسان 2011 ص63.
- 2- فوزية لزغم : البيوتات والأسر العلمية للجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي (925-1246هـ/1520-1830) أطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2013، م1، ص أ.---3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.---4- مجمع اللغة العربية- المعجم الوسيط، مكتبة الشروق العربية، القاهرة، ط4، 2004، ص78.---5- الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ضبطه يوسف البقاعي، دار الفكر للطباعة والتوزيع، بيروت 2005، ص137.---6- الزمخشري: أساس البلاغة، تح عبد الرحمن محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ص34.---7- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.---8- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار الفكر للطباعة والتوزيع، ط1، بيروت، 2005، ص137.
- 9- البخاري: الجامع الصحيح المختصر، تح مصطفى البغا، دار ابن كثير، بيروت، 1987، ج 3، ص1237، حديث رقم 3202.
- 10- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ص140.---11- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992، ج1، ص520/فوزية لزغم: المرجع السابق، م1، ص124.---12- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 13- روبرت برنشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 الى نهاية القرن 15م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ج 2، ص 146.---14- الغريبي: عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة بحلابة، تح رابع بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1971، صص334-336.---15- المصدر نفسه صفحة 636.---16- فوزية لزغم: المرجع السابق، م 1، ص 125.
- 17- العبدري: الرحلة المغربية، تح محمد الفاسي، الرباط، 1968، ص59/التمبكتي: نيل الانتهاج بتطيرز الدباج، اشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهامة، منشورات كلية الدعوة الاسلامية، طرابلس، ط1، 1989، ص155.
- 18- ابن قنفذ: أنس الفقير وعز الحقيز، تصحيح محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط، 1965، ص92-93/ابن قنفذ: الوفيات، تح عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص376/التمبكتي: المصدر السابق، ص160/عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص27-28.---19- التمبركتي: المصدر السابق، ص160/عادل نويهض، المرجع السابق، ص27.
- 20- ابن قنفذ: الوفيات، ص377.---21- الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ط 2، 1966، صص108-110.---22- عادل نويهض: المرجع السابق، ص268.---23- فوزية لزغم: المرجع السابق، م 1، ص 149.
- 24- ابن قنفذ: الوفيات، المصدر السابق، ص 270.---25- ابن قنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح محمد الشادلي وعبد المجيد تركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص 149.---26- ابن قنفذ: الوفيات، ص345/ابن قنفذ: أنس الفقير، ص48/عادل نويهض: المرجع السابق، ص270.---27- ابن قنفذ: الوفيات، ص 355-356، عادل نويهض: المرجع السابق، ص 270.---28- ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 47.
- 29- التمبركتي: المصدر السابق، ص109-110.---30- روبرت برانشفيك: الرجع السابق، ج 2، ص28.---31- نفسه، ج 2، ص355.
- 32- ينظر: عبد الكريم الفكون، نوازل الفكون، مخطوط، نسخة مصورة عن المكتبة الوطنية الجزائرية، ص 476، نقلا عن فوزية لزغم، المرجع السابق، م 1، ص 144.---33- الافرائي: صفوة من اخبار صلحاء القرن الحادي عشر، مخطوط بالمكتبة والوطنية الجزائرية تحت رقم 1741، ص 151.
- 34- ابو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج 1، ص 487.---35- فوزية لزغم: المرجع السابق، م 1، ص 155.
- 36- المرجع نفسه، م1، ص 155.---37- الزركشي: المصدر السابق، ص 18.---38- نفسه، ص148.---39- المصدر نفسه، ص 154.---40- روبرت برنشفيك: المرجع السابق، ج2، ص56.---41- عبد الكريم الفكون: منشور الهداية، ص 80،

- نقلا عن فوزية لزغم، المرجع السابق، م 1، ص 157.---42-عبد الكريم الفكون: منشور الهداية، ص80، نقلا عن فوزية لزغم، ص164.---43-المصدر نفسه، نقلا عن المرجع نفسه، ص164.---44-المرجع نفسه، ص164.---45-المرجع نفسه، ص164.---46-عبد الكريم الفكون: منشورة الهداية، ص81، نقلا عن فوزية لزغم، المرجع السابق، م 1، ص165.---47-عبد الله حمادي: في مقدمة تحقيقه لكتاب تحفة الاخوان في تحريم الدخان لعبد القادر الراشدي، ص35.
- 48- فوزية لزغم: المرجع السابق، م1، ص157.---49-حكم الأمير أبو زكريا بن الأمير أبي إسحاق بجاية وقسمطينة منذ 683هـ، وكان يقسم السنة بينهما، ينظر ابن قنفذ، الفارسية، ص148.---50-المصدر نفسه، ص148-149.---51-المصدر نفسه، ص149.
- 52- أبو القاسم سعد الله، شيخ الاسلام عبد الكريم الفكون، الداعية السلافية، دار الغرب الاسلامي، ط1، بيروت، ص186، ص22، فوزية لزغم، المرجع السابق، ص120.---53- فوزية لزغم، المرجع نفسه، ص120-121.---54-المرجع نفسه، ج2، ص549.
- 55-المرجع نفسه، ج2، الصفحة نفسها--56-المرجع نفسه، ج2، الصفحة نفسها.---57-المرجع نفسه، ج2، ص570.
- 58-المرجع نفسه، ج2، ص505.---59-المرجع نفسه، ج2، الصفحة نفسها--60-المرجع نفسه، ج2، ص549.
- 61-المرجع نفسه، ج2، ص550.---62-المرجع نفسه، ج2، الصفحة نفسها.---63-المرجع نفسه، ج2، الصفحة نفسها
- 64-ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في اواخر العهد العثماني(1792-1830)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985، ص136/فوزية لزغم، المرجع السابق، ج2، ص604.---65-المرجع نفسه، ج2، ص602.---66-ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص136.---67-فوزية لزغم، المرجع السابق، ص604.---68-المرجع نفسه، ج2، الصفحة نفسها.---69-المرجع نفسه، ج1، ص120-121.

**Abstract:**

*The city of Constantine knew a progress in the scientific and Cultural renaissance during the hafsid period. The city god never seen such a progress before and this due to the abundance of the scientists from this city or even from the arrivals from Tunisia, Bejaia and the Andalus.*

*It is also due to the spread of the educations l'institutions and the abundance of the libraries, further more the availability of the families which carried the scientific and cultural torch. Constantine was able to emerge in several filds such as political, social and cultural.*